كانت النيّة زيارة الجامع الأثَري المشهور. لكن الزحام وتداخل المارّة عاقا زوجها عن درس الخريطة جيّداً رغم عدم استحسان سمر فكرته هذه. وما إن عبرا قوس المدينة ووجدا أنفسهما بين آلاف خلايا النّحل البشريّة في حركة وتكاثر مستمرّين حتى اقترحت سمر أن يلبّيا طلب أحد الشبّان والأولاد الّذين كانوا قد التفّوا حولهما يعرضون عليهما خدماتهم السّياحيّة بكلمات إيطاليّة، فرنسيّة، انكليزيّة. لكنّ زوجها رفض رفضاً قاطعاً وكأنّها باقتراحها هذا قد أهانت ذكاءه ونباهته في تدبير أمرهما.

يسيران من جديد في قلب خليّة النّحل الّتي كانت تموج بالزّحام وكأنّها تعتاش على حركة الإنسان والدّواب والأشياء. أخذ الضّيق يبدو واضحاً على وجه زوج سمر حتّى كأنّه فقد روح المغامرة الّتي بدأ بها تجوالهما. بدا الخوف على وجهه؛ الشّعور بالاختناق، بعكس سمر الّتي بَدَتْ وكأنّها ضغطت على زرّ في عقلها أعادها إلى الماضي وهي صغيرة فوجدت نفسها تستمتع بهذه الطّرق الضيّقة والضّجيج والفوضى كما كانت في الطفّولة وهي تصحب جدّتها إلى الأسواق. زوجها يلتصق بها الآن، يحاول التحدّث إليها بالعربيّة. كان يريد أن يخفي عينيه الملوّنتين وشعره الأملس، الفاتح اللّون، الّذي وقف نشازاً بين الرّؤوس المجعّدة الشّعر. يردّد بأنّه يشعر بالاختناق من هذه الطّرق الضّيقة، من سيل الشّباب والأطفال الّذين مازالوا يلحقون بهما. وإذا بها تستدير وتتحدّث إلى من حولهما بالعربيّة، تمازحهم وهم يلحّون على معرفة بلدها العربي وما إذا كان هذا الأجنبي هو زوجها. وعندما نفت أنّه أجنبي تَحَدَّوْها أن يتحدّث إليهم بالعربيّة، وهي تُشاكِسهم بضحكات وابتسامات. ولم يَبتَعِدوا عنهما رغم ضغط المارّة والبغال ورغم محاولة زوجها إيقافها عن السّير مع الشِلّة منتقداً تدخّلهم بهما، مؤكّداً بأن الجامع على بضعة أمتار وهو يدلّها على موقعه في الخريطة. وسمر تحاول أن تجعله يرى الطرافة والبراءة خلف تصرّفهم هذا بدلاً من دافعهم المادّي كما يتوجّس. وعندما أراد مراهنتها بأنّهم سوف ينتظرون أجراً لقاء اصطحابهما إلى الجامع أجابته ببساطة :«ولِمَ لا . . على كلّ حال أجر زهيد. . .».

حنان الشيخ – مقتطف من قصّة قصيرة عنوانها *عندما تركت الحياة حياتها*

(عنوان المجموعة القصصية : أكنس الشمس عن السطوح، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤)